دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

العنوان:	بين الكفر الأصلي والكفر الطارئ (الردة) في القرآن والسنة النبوية (1 / 2)
المصدر:	مجلة الإبصار
الناشر:	جمعية إبصار للتربية والثقافة والبحث العلمي
المؤلف الرئيسي:	التجكانى، محمد الحبيب
المجلد/العدد:	ع2
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	2015
الشهر:	دجنبر
الصفحات:	119 - 134
رقم MD:	800694
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
اللغة:	Arabic
قواعد المعلومات:	EduSearch
مواضيع:	الكفر، الحدود (فقه إسلامي)، القرآن الكريم، السنة النبوية، الردة (فقه إسلامي)
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/800694

© 2021 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

بين الكفر الأصلي والكفر الطارئ «الردة» في القرآن والسنة النبوية 2/1

أ.د. محمد الحبيب التجكاني
جامعة القرويين
كلية أصول الدين - تطوان

تقديم:

كثر هذه الأيام، الحديث في وسائل الإعلام عن الكفر، وعن التكفير والتكفيريين، من زوايا مختلفة، وبمنطلقات إيديولوجية متعددة، قد تؤدي – في بعض الأوساط – إلى التشويش على عقيدة المسلم، وعلى تصوره لدينه الحنيف.

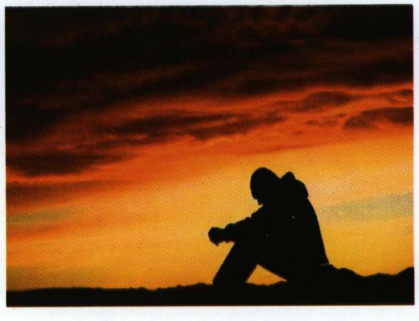

وبما أن كتاب الله تعالى (القرآن) يتضمن نظاما شاملا لحياة الإنسان بمختلف جوانبها العقدية، والسياسية، والاقتصادية، وسواها، كان من اللازم البحث بين ثنايا آياته، المنزلة على قلب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، عن مفاهيم الكفر، والتكفير، وعن الكفر الأصلي، المترتب عن الرفض المباشر لدعوة الأنبياء والرسل، عليهم الصلاة والسلام.

وعن الكفر الطارئ بعد الإيمان بالرسالات السماوية ورسلها، وبخاتمهم محمد بن عبد الله، عليه الصلاة والسلام، فيما يسمى الردة، بعد إيمان وراثي عن الأسرة والمجتمع، أو بعد اعتناق حر للإسلام بعد الاقتناع بكتاب الإسلام، (القرآن)،وبيانه: (السنة النبوية)

وإذن :

~ فما هو الكفر الأصلي الذي لم يسبقه الإسلام ؟

~ وما هو الكفر الطارئ بعد الإسلام ؟

~ وما هي آثار النوعين من الكفر على أهلية الإنسان في المجتمع المسلم، وعلى مصيره في الدنيا والآخرة ؟

يتم الجواب على هذه الأسئلة في فصلين: الأول للكفر الأصلي الذي لم يسبقه الإسلام؛ والثاني للكفر الطارئ بعد الإسلام، أي الردّة.

الفصل الأول: ما هو الكفر الأصلي وأنواعه ؟

الكفر: عدم الإيمان، والإيمان هو الاعتقاد بالألوهية، والرسالة، والمعاد، أي البعث بعد الموت، ثم الالتزام

بالمنهج الذي وضعه الله تعالى لحياة الإنسان على الأرض، والذي يجسم ذلك الاعتقاد:

{ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون} (البقرة: 1-4).

سأل جبريل، عليه السلام، رسول الله، صلى الله عليه وسلم: ما الإيمان؟ فقال، عليه الصلاة والسلام:

الإيمان: أن تؤمن بالله وملائكته، وكتبه، ورسله، وتؤمن بالبعث [1].

يتجلى الإيمان بالقول والعمل، بحيث يسلم المرء نفسه – إراديا – لخالقه، في الحركات والسكنات، فيجمع إلى خضوع الظاهر خضوعه الباطن في العبادات والأعمال. سأل جبريل، عليه السلام، رسول الله، صلى الله عليه وسلم: ما الإسلام؟ فأجاب الرسول، صلى الله عليه وسلم:

الإسلام: أن تعبد الله، ولا تشرك به، وتقيم الصلاة، وتوتي الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان [2].

بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحج البيت، وصوم رمضان [3].

لكن قد يسلم المرء في الظاهر، فيشهد شهادة الحق ، ويكون قلبه فارغا من عناصر الإيمان الثلاثة: الألوهية، والرسالة، والمعاد، فيكون الشخص مسلما في الظاهر، غير مؤمن في الباطن، فيكون استسلامه لمنهج الله تعالى غير كامل، وقد قال القرآن عن هذه الحالة:

{ قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم} (الحجرات:14)

وقد يؤمن المرء في باطنه، ولا يكون له عمل بمقتضى الإيمان، فيكون إسلامه ناقصا كذلك، وهذه حال المرجئية الذين انبثقوا من تبرير التحلل من منهج الله تعالى، ومن عدل نظامه، حيث قالوا: لا تنفع مع الكفر طاعة، ولا تضر مع الإيمان معصية، وقد قال الرسول، صلى الله عليه وسلم، عن ضرورة ربط الاعتقاد بالعمل، حتى يكمل للمرء إسلامه وإيمانه:

الإيمان: الصبر والسماحة [4]

الإيمان: بضع وسبعون شعبة، فأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان [5].

المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم [6].

إنه عندما يوجد الخضوع الباطن، وينبثق عنه خضوع ظاهر، في هذه الحالة يوجد الإسلام الكامل الذي أمر الله تعالى به خليله إبراهيم، عليه الصلاة والسلام:

{ إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون} (البقرة: 130-132).

وما أن كتاب الله تعالى (القرآن) يتضمن نظاما شاملا لحياة الإنسان بمختلف جوانبها العقدية، والسياسية، والاقتصادية، وسواها، كان من اللازم البحث بين ثنايا آياته، المنزلة على قلب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، عن مفاهيم الكفر، والتكفير، وعن الكفر الأصلي، المترتب عن الرفض المباشر لدعوة الأنبياء والرسل، عليهم الصلاة والسلام، وعن الكفر الطارئ بعد الإيمان بالرسالات السماوية ورسلها، وخاتمهم محمد بن عبد الله، عليه الصلاة والسلام....

كفر إبليس أو أول كفر:

وجد الكفر – لأول مرة – مع إبليس اللعين، يوم خلق الله تعالى آدم، عليه الصلاة والسلام؛ حيث أمره الله،

عز وجل، بالسجود، تحية لآدم مع الملائكة، وإن كان اللعين ليس من الملائكة، وإنما من الجن:

{ **وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين** } (البقرة:33).

{ **وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه**} (الكهف:49).

وسأل اللّه، عز وجل، إبليس عن سبب عدم استجابته لأمر اللّه، عز وجل، بالتحية لآدم، فأجاب اللعين: السبب هو أنه لا يليق أن يقدم التحية الأعلى، الذي خلق من النار المضيئة، للأدنى، الذي خلق من الطين المظلم، ولهذا التكبر المشفوع بالحسد، عاقب اللّه تعالى إبليس بالرجم، أو الطرد من رحمة اللّه تعالى.

{ **قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي أستكبرت أم كنت من العالين** }

{ **قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين قال فاخرج منها فإنك رجيم وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين** } (ص 74-77)

ولما أمن اللعين من العقاب العاجل، نظرا لحلم اللّه تعالى، الذي قد لا يعجل العقاب للمتمردين، طلب من اللّه، عز وجل: أن ينظره إلى يوم القيامة، لينتقم – إغواء بالشر – من آدم وذريته، لأن آدم كان سبب طرد اللعين من رحمة اللّه تعالى، ومن الملأ الأعلى، فاعتبره وذريته أعداء ألداء: { **قال رب فأنظرني إلى يوم يبعثون قال فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم**}.

{ **قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين** } (ص:78-82)

{ **إن الشيطان للإنسان عدو مبين** } (يوسف:5)

{ **إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير** } (فاطر:6).

يجد الشيطان مدخله إلى إغواء الإنسان في المرتبة الدنيا من مراتب النفس الإنسانية،أي: النفس الأمارة بالسوء، التي قال اللّه تعالى عنها، حكاية عن نبي اللّه يوسف، عليه الصلاة والسلام:

{ **إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي** } (يوسف:53)

بينما المراتب العليا للنفس الإنسانية أعني: النفس اللوامة، التي تحاول أن تمنع الانحراف، والنفس المطمئنة التي تثبت على منهج اللّه تعالى، والتي تستعيذ باللّه، عز وجل، عند التهديد بالإغواء.

{ **وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم** } (الأعراف:200)

هاتان المرتبتان تستعصيان على أحابيل الشيطان.

{ **ولا أقسم بالنفس اللوامة** } (القيامة:2)

{ **يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي** } (الفجر:32)

لقد خلق اللّه تعالى الإنسان مؤمنا، تحت إلهام الفطرة :

{ **لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم** } (التين:4)

{ **فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها** } (الروم:29).

بل إن اللّه عز وجل استخرج من ظهور بني آدم نسمات البشرية كلها، واستجوبها: هل تؤمنين باللّه تعالى ربا؟ فأجابت النسمات: أن نعم، أنت ربنا:

{ **وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين. أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم**} الأعراف: 172، 173

لكن إبليس اللعين وجنوده يوسوسون للإنسان بالمعصية والكفر، عند هبوط فاعلية الفطرة، بفساد المحيط، وضعف التربية الإيمانية التي توقظ مكنونات الفطرة.

"كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه" (7)

يقول اللّه عز وجل في حديث قدسي:(8)

" إني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وأنهم أتتهم الشياطين، فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانا".

إنه عند مستوى النفس الأمارة بالسوء، بصفتها مدخلا لوسوسة الشيطان وإغراءاته، وفي غفلة من توجيهات الوحي الإلهي، الذي وجد لدى كل الأمم، كما يقول اللّه عز وجل، لرسوله محمد صلى اللّه عليه وسلم: "**إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا. وإن من أمة إلا خلا فيها نذير**" (فاطر:24)

في هذا السياق تحدث المعصية، ويحدث الكفر في حياة البشر، وهذا الكفر يتنوع من كفر التمرد على اللّه، مع الاعتراف بالألوهية والربوبية، كما هو كفر إبليس اللعين، إلى كفر الإلحاد بإنكار الألوهية والربوبية، إلى كفر تأليه البشر، أو تألهه، وذلك بدءا من قوم نوح عليه الصلاة والسلام، لأن الفترة ما بين آدم ونوح عليهما الصلاة والسلام، كانت خالية من الكفر، وإن لم تخل من المعصية، فابن آدم قابيل قتل أخاه هابيل، حسدا لهابيل الذي قبل اللّه تعالى قربانه، ولم يتقبل قربان قابيل:

{ **واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق إذ قرباقربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر.قال لأقتلنك. قال إنما يتقبل الله من المتقين. لئن بسطت إلي يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين. إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين. فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين**}[9] (المائدة:29-32)

قال عبد اللّه بن عباس، رضي اللّه عنهما:

كان بين نوح وآدم عشرة قرون، كلهم على شريعة من الحق، فاختلفوا، فبعث اللّه النبيئين مبشرين ومنذرين[10].

وهذا الكفر يتنوع من كفر التمرد على اللّه، مع الاعتراف بالألوهية والربوبية، كما هو كفر إبليس اللعين، إلى كفر الإلحاد بإنكار الألوهية والربوبية، إلى كفر تأليه البشر، أو تألهه، وذلك بدءا من قوم نوح عليه الصلاة والسلام، لأن الفترة ما بين آدم ونوح عليهما الصلاة والسلام، كانت خالية من الكفر، وإن لم تخل من المعصية.

كفر قوم نوح، عليه الصلاة والسلام:

كان نوح، عليه الصلاة والسلام، وقومه بجنوب ما بين النهرين، بالعراق، وحول موقع الكوفة الحالية [11]، بعثه اللّه تعالى رسولا إلى قومه، على رأس الأربعين من عمره، كما تبعث الرسل عادة، عليهم الصلاة والسلام، فأمرهم بترك الوثنية التي تقوم على عبادة الأصنام أربابا وآلهة، ودعاهم إلى عبادة اللّه تعالى وحده، وتوحيده عقيدة وعبادة، ونظاما اجتماعيا شاملا لكل مجالات الحياة:

{ **ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه، فقال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره، إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم** }. (الأعراف:59)

فكان جواب قوم نوح، عليه السلام: أن كفروا باللّه تعالى، وبرسوله، وبالمنهج الذي أوحى اللّه تعالى به إلى رسوله نوح، عليه الصلاة والسلام، وأمر الرؤساء أتباعهم بالثبات على الوثنية وعبادة الأصنام المتعددة: { **وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا وقد اضلوا كثيرا**} *(نوح:23)*.

واشتد الصراع بين المؤمنين أتباع نوح، والكافرين معارضيه وأعدائه، ووجه الكافرون التجريح إلى

شخص الرسول نوح، عليه السلام، ثم إلى أتباعه، قالوا عن نوح: إنه مجنون وكذاب، ومحتال، يريد أن يظهر امتيازه على قومه، ليصل إلى الحكم عن طريق الدين، كما يقال اليوم، مدعين: أن الرسل لا يكونون إلا من الملائكة، ولا يكونون من البشر:

{ ***كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر*** } (القمر:9)

{ **وقال الملأ الذين كفروا من قومه ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ولو شاء الله** [1] **لأنزل ملائكة ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين إن هو إلا رجل به جنة فتربصوا به حتى حين}** (المومنون:24-25)

وقالوا عن المؤمنين بنوح، عليه الصلاة والسلام: إنهم أحط طبقات المجتمع، الذين لا يجوز الجلوس معهم، ولا محادثتهم:

{ **قالوا أنؤمن لك واتبعك الأرذلون** } (الشعراء:111)

{ **وقال الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشرا مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين** } (هود:27).

لم يقتصر قوم نوح، عليه السلام، على هذه الدعاية المغرضة، وإنما مارسوا ضده الأذى بالضرب، وإحداث الجروح بجسمه، كانوا يضربونه، ويخنقونه، حتى يغشى عليه، فإذا أفاق قال: اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون [12].

ثم هددوا نوحا، عليه السلام، بالقتل، رجما بالحجارة، إن لم يكف عن الدعوة إلى التوحيد:

{ **قالوا لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين** } (الشعراء:116).

وبث نوح، عليه السلام، شكواه إلى الله عز وجل: (**قال رب إني دعوت قومي ليلا ونهارا فلم يزدهم دعائي إلا فرارا، وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم،** [13] **واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا ثم إني دعوتهم جهارا ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا، فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا يرسل السماء عليكم مدرارا ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا مالكم لا ترجون لله وقارا** [15] **وقد خلقكم أطوارا** [16]). (نوح: 5-14).

وبعد طول عناء، وصبر، لمدة خمسين وتسع مائة سنة في الدعوة إلى الله تعالى بوسائل مختلفة، فكان الجواب من الحي القيوم لرسوله، عليه الصلاة والسلام: (**واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون**) (هود:37).

فكان الطوفان الذي أغرق الكفار، بمن فيهم كفار بيت النبوة: بيت نوح، عليه الصلاة والسلام، زوجته وابنه الكافرين.

إن كفر قوم نوح هو إنكار لوجود الله تعالى، وللصلة بين السماء والأرض، عن طريق الرسل، عليهم الصلاة والسلام، وهو إلحاد، بإنكار الربوبية والألوهية، من نوع الدهرية، الذين يقولون: إن هي إلا أرحام تدفع، وأرض تبلع، وما يهلكنا إلا الدهر:

(***وقالوا*** **ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ومالهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون**) (الجاثية:23).

وهو كذلك كفر من نوع الشيوعية التي تقول: إن الدين أفيون الشعوب.

كفر قوم هود، عليه الصلاة والسلام:

وبعد مدة بعث الله تعالى نبيا من نسل سام بن نوح، وهو هود بن عبد الله بن رباح بن الخلود بن عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح، بعثه الله في قومه عاد الأولى، بمنطقة الأحقاف، بشمال حضر موت باليمن، غرب عمان [18] ، كانوا مشركين مثلما كان العرب على عهد البعثة المحمدية، يعبدون الأصنام التي

كانت عند قوم نوح، وأضافوا إليها صنما اسمه الهتار:

﴿ **واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه ألا تعبدوا إلا الله** ﴾ (الأحقاف:27).

﴿ ***واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بصطة فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون*** ﴾ (الأعراف:68).

كانت عاد الأولى قوية في أبدانها، وفي فكرها، وفي اقتصادها، فكفرت بنعم الله تعالى، وطغت، ورفضت دعوة التوحيد التي جاءهم بها هود، عليه الصلاة والسلام:

﴿ **وأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة أو لم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون** ﴾ (فصلت:15).

﴿ **واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون أمدكم بأنعام وبنين وجنات وعيون** ﴾ (الشعراء:132-134).

﴿ **وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزءون**﴾ (الأحقاف:25).

اتهمت عاد الأولى الرسول هودا، عليه الصلاة والسلام، بالسفه، أي ضعف العقل والتدبير، وبالكذب على الله تعالى وعلى الناس:

﴿**فقال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك في سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين قال يا قوم ليس بي سفاهة ولكني رسول من رب العالمين أبلغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم** ﴾ (الأعراف: 61-68).

وصابر هود، عليه الصلاة والسلام، في دعوة قومه إلى التوحيد في العقيدة، والعبادة،والنظام الاجتماعي الصالح، وفي كل مرة كان جواب الكافرين من قومه:

﴿ **يا هود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمومنين** ﴾ (هود:53).

وفي النهاية، كان عذاب الاستئصال للكافرين برياح شديدة قاتلة:

﴿ **وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر**[19] **عاتية**[20] **سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما**[21] **فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية**[22] **فهل ترى لهم من باقية** ﴾ (الحاقة:6-8)

إن كفر عاد قوم هود، عليه الصلاة والسلام، من نوع الشرك، لأنهم كانوا يشركون مع الله تعالى في العبادة أصنامهم، رما لتقربهم إلى الله، عز وجل، أو لمجرد التقليد:

﴿ **قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا فائتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين. قال قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب**﴾ (الأعراف:69-70).

كفر قوم صالح، عليه الصلاة والسلام:

وبعد النبي هود، عليه الصلاة والسلام، بعث الله تعالى النبي صالحا، عليه الصلاة والسلام، إلى قومه ثمود، بالحجر، شمال الحجاز، على طريق تبوك، شرق خليج العقبة:

﴿ **وإلى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره** ﴾ (الأعراف:73) .

فواجه قومه ثمود الذين لا يعترفون بوجود الله تعالى، فضلا عن الإيمان به، ويتشبثون بعبادة الأصنام التي كان يعبدها آباؤهم:

﴿ **ألا إن ثمودا كفروا**[23] **ربهم ألا بعدا لثمود** ﴾ (هود:68)

{ قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا وإننا لفي شك مما تدعونا إليه مريب } (هود:61)

وتعنتا طلبوا من نبي الله صالح، عليه الصلاة والسلام: أن يأتيهم بمعجزة محددة، هي أن تخرج من صخرة ناقة مكتملة الخلق، فأعطى الله تعالى رسوله هذه المعجزة المطلوبة:

{ ياقوم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم } (الشعراء: 155-156)

ورغم المعجزة، انقسمت ثمود إلى صنفين: مؤمنين بالنبي، وكافرين بالله ورسله، على عادة المترفين والمستضعفين:

{ ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحا فإذا هم فريقان يختصمون } (النمل:45)

{ قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون قال الذين استكبروا إنا بالذي آمنتم به كافرون } (الأعراف:76-75).

نسبوا إلى نبي الله صالح، عليه الصلاة والسلام: أنه كذاب وفرح بكذبه على الناس:

{ فقالوا أبشرا منا واحدا نتبعه إنا إذا لفي ضلال وسعر أألقي الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشر[24] } (القمر:24-25).

ولما قررت ثمود اغتيال رسول الله صالح، عليه الصلاة والسلام، سلط الله تعالى عليهم العذاب، بصيحة قاتلة من ملاك:

{ إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر[25] } (القمر:31)

{ وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين } (الأعراف:78)

{ فلما جاء أمرنا نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزي يومئذ إن ربك هو القوي العزيز } (هود:66).

ولقد مر الرسول محمد، صلى الله عليه وسلم، بالحجر، عند ذهابه لغزوة تبوك، سنة (9هـ/630م) فقال للصحابة، رضي الله عنهم:

لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين، فلا تدخلوها عليهم، أن يصيبكم مثل ما أصابهم[26].

إن الكفر لدى ثمود: قوم صالح، عليه الصلاة والسلام، كان من نوع كفر قوم نوح، عليه الصلاة والسلام، كفر الإلحاد الذي ينكر وجود الله تعالى، وربوبية، وألوهيته.

كفر قوم إبراهيم الخليل، عليه الصلاة والسلام:

وبعث الله تعالى إبراهيم الخليل، عليه الصلاة والسلام، في مدينة كوثا، شرق بابل بالعراق، في قوم وثنيين، يعبدون الأصنام على الأرض، بصفتها مثلة للنجوم في السماء، وبالتالي فهم كانوا يعبدون النجوم، وكان لكل مدينة إلهها الخاص بها، فمدينة بابل إلهها مردوخ، ومدينة أور إلهها نانار، وهكذا، وفي نفس الوقت الحاكم الأعلى هو إله بدوره، لأنه يولد من زواج بين كاهنة المعبد وملك أو أمير، وأولاد هذا الزواج لهم الحق - في قوانين بابل - أن يدعوا الألوهية، وقد كان ملك بابل لعصر إبراهيم الخليل، عليه الصلاة والسلام، خلال القرن 19 قبل الميلاد، نمروذ بن كنعان، يدعي الألوهية، كما حكى عنه القرآن:

{ ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت } (البقرة: 257).

دعا إبراهيم، عليه الصلاة والسلام، أباه آزر إلى عبادة الله تعالى وحده، وترك عبادة الأصنام العمياء الصماء التي لا قدرة لها:

﴿ *يا أبت لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا* ﴾.

﴿ *يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطا سويا* ﴾

﴿ *يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصيا* ﴾

﴿ *يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا* ﴾ (مريم:41-45)

فأجاب الأب آزر ابنه إبراهيم، عليه الصلاة والسلام، مهددا إياه بالرجم إن لم يكف عن دعوة التوحيد.

﴿*أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجمنك*﴾ (مريم:46)

ثم دعا إبراهيم، عليه السلام، ملك بابل المتأله نمروذ بن كنعان إلى عبادة الله تعالى وحده، فكان جواب نمروذ بن كنعان أنه هو، بدوره، إله، لكن إبراهيم الخليل طرح على نمروذ سؤالا مرتبطا بقدرة الإله الحق، عز وجل، فأفحم المتأله:

﴿ *ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت*[27] *الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين* ﴾ (البقرة:258).

ثم توجه إبراهيم، عليه السلام، إلى قومه ببابل، ومعهم أبوه آزر، بالدعوة إلى التوحيد، وترك عبادة الأوثان، فأجاب القوم: إنهم مصرون على عبادة التماثيل، لأن آباءهم قد عبدوها:

﴿ *قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين قال لقد كنتم وآباؤكم في ضلال مبين قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين قال بل ربكم رب السماوات والأرض الذي فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين*﴾ (الأنبياء:51-56)

وفي غيبة من قومه، كسر إبراهيم الخليل، عليه الصلاة والسلام، التماثيل، وترك كبيرها، ففوجئ القوم بأصنامهم مهشمة، فتساءلوا:

﴿ *من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم، قالوا فاتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون* ﴾ (الأنبياء:59-61)

وحاكم القوم وملكهم: نمروذ إبراهيم الخليل على الإساءة إلى الأوثان، وصدر عليه الحكم بالإعدام حرقا بالنار.

﴿ *قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين* ﴾ (الأنبياء:67)

ووضع إبراهيم، عليه الصلاة والسلام، في نار متقدة في كومة ضخمة من الحطب، وعند نهاية وقودها، خرج إبراهيم، عليه السلام، لم يصب بأي أذى في جسمه، ولا في ملبسه، لأن خالق النار، عز وجل، خاطبها بأن تكون سلاما على إبراهيم الخليل، عليه الصلاة والسلام، لا بالحرارة ولا بالبرودة:

﴿ *يا نار كوني بردا وسلاما على إبراهيم وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين* ﴾ (الأنبياء:68-69).

ورغم هذه المعجزة التي لا مثيل لها، ظل قوم إبراهيم، عليه السلام، وملكهم نمروذ المتأله على كفرهم، وهو كفر ينكر وجود الله تعالى، وبالأحرى ينكر ربوبية الله تعالى وألوهيته، ويزيد على كفر قوم

نوح، وقوم صالح، بتأليه البشر: الحاكم نمروذ بن كنعان، فهو كفر مزدوج.

لقد أمر الله، عز وجل، رسوله إبراهيم، عليه الصلاة والسلام، بالهجرة من أرض الكفر المزدوج إلى الأرض المباركة: أرض الشام، صحبة زوجته سارة، وابن أخيه لوط، عليه السلام، وأعطاه الله ثلاثة أنبياء من ذريته المباشرة، هم ابناه: إسماعيل وإسحق وحفيده: يعقوب بن اسحق، عليهم الصلاة والسلام:

﴿ ***ونجيناه ولوطا إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين ووهبنا له إسحق ويعقوب نافلة وكلا جعلنا صالحين***﴾ (الأنبياء:70-71).

ومن الشام جال إبراهيم، عليه الصلاة والسلام، في مصر للدعوة إلى التوحيد، وقصد الحجاز لتجديد بناء البيت العميق:

﴿ ***وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم*** ﴾ (البقرة:126-127).

كفر قوم موسى بن عمران، عليه الصلاة والسلام

وبعث الله تعالى موسى بن عمران وأخاه الأكبر هارون، عليهما الصلاة والسلام، إلى فرعون وقومه بمصر، يدعوهم إلى التوحيد، وعبادة الله تعالى وحده، وفرعون مصر يومئذ – لدى البعض – هو رمسيس الثاني بن سيتي الأول، الذي حكم مصر من مدينة الأقصر بجنوب مصر، على نهر النيل، ما بين 1304 و 1237 قبل الميلاد، والذي كان يدعي الألوهية، كما أدعاها إمبراطور بابل: نمروذ بن كنعان بالعراق، قال الفرعون لموسى، عليه الصلاة والسلام:

﴿ ***لئن اتخذت إلها غيري لأجعلنك من المسجونين***﴾ (الشعراء:39)

وقال لشعب مصر: ﴿***أنا ربكم الأعلى***﴾ (النازعات:15)

أمر الله تعالى موسى وأخاه هارون أن يذهبا إلى فرعون لدعوته إلى التوحيد بالحسنى واللين:

﴿ ***أذهبا إلى فرعون إنه طغى فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى*** ﴾ (طه:42)

قال موسى لفرعون: ﴿ ***يا فرعون إني رسول من رب العالمين حقيق علي أن لا أقول على الله إلا الحق قد جيئتكم ببينة من ربكم*** ﴾ (الأعراف:104).

وسأل فرعون: ﴿ ***وما رب العالمين*** ﴾ (الشعراء:23)

فأجابه نبي الله موسى، عليه الصلاة والسلام: ﴿ **رب السماوات والأرض وما بينهما**﴾ (الشعراء:24)

وأشرك فرعون في الحوار مع موسى ملأه من وزراء ومستشارين، وقال للملأ، بحضور موسى، عليه الصلاة والسلام:

﴿ إن ***رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون***﴾ (الشعراء:27)

وبعد الاتهام بالجنون، أضافوا تهمتين أخريين: الكذب، والسحر:

﴿ ***ولقد أرسلنا موسى بآيتنا وسلطان مبين إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب***﴾ (غافر:23-24).

ولما أظهر موسى، عليه السلام، المعجزة التي أيده الله بها، وهي العصا التي تتحول إلى ثعبان عندما يضعها على الأرض، واليد التي تتحول بيضاء مشعة عندما يدخلها في الجيب على صدره:

﴿ ***فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين*** ﴾ (الشعراء:31-32)

لما أظهر ذلك، تجمعت كل التهم في السحر، فقرر الملأ إبطال سحره – في زعمهم – عن طريق المباراة مع كبار سحرة مصر:

﴿ ***فالوا أرجه وأخاه وابعث في المدائن حاشرين ياتوك بكل ساحر عليم فجمع السحرة لميقات يوم معلوم***﴾ (الشعراء:36-38)

وخلال المباراة، أدرك السحرة: أن موسى ليس ساحرا، وإنما هو نبي، أيده الله تعالى بمعجزة لا طاقة للبشر بها، فأعلنوا إسلامهم، وشهدوا شهادة الحق: لا إله إلا الله، موسى رسول الله عليه الصلاة والسلام:

﴿ ***وألقي السحرة ساجدين قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهارون*** ﴾ (الأعراف:119-120).

وأعدم الفرعون السحرة الذين أسلموا، بحجة أنهم آمنوا دون أن يحصلوا على الإذن بالإيمان: لأن الفرعون كان يدعي السيطرة على أبدان المصريين وضمائرهم معا:

﴿ ***قال آمنتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم الذي علمكم السحر لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم في جذوع النخل*** ﴾(طه:71).

وكما أسلم السحرة، أسلمت زوجة الفرعون، التي قال عنها الرسول محمد، صلى الله عليه وسلم: إنها آسية بنت مزاحم، عندما تابعت المباراة بين سحرة مصر وموسى، عليه الصلاة والسلام، فرأت النتيجة، واقتناع السحرة بنبوة موسى، عليه السلام، وأسلمت كذلك ماشطة خادمة ابنة فرعون، وكان مصير الاثنتين الشهادة في سبيل الله، عز وجل، قالت زوجة الفرعون، وهي تسلم الروح إلى بارئها تعذيبا:

﴿ ***رب ابن لي عندك بيتا في الجنة ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين*** ﴾ (التحريم:11)

ورغم المعجزات التي أيد الله تعالى بها رسوله موسى، عليه الصلاة والسلام، ورغم نتيجة المباراة بين سحرة مصر ونبي الله موسى، عليه السلام، ظل الفرعون على عناده وتكبره، كافرا ينكر وجود الله تعالى، ويدعي الألوهية، وبالتالي ينكر ربوبية الله تعالى، وألوهيته، وينكر الاتصال بين السماء والأرض عن طريق الرسل، عليهم الصلاة والسلام.

ولما بلغ الخلاف المتوتر منتهاه، بين النبي موسى، عليه السلام، والمؤمنين معه، وبين الفرعون المتأله وأتباعه، أمر الله تعالى موسى وهارون، عليهما السلام، بالهجرة، ليلا، من مصر، عبر البحر الأحمر إلى سيناء، ووعدهما: أنه تعالى سيحول مكان العبور من البحر إلى أرض يابسة بمجرد ضرب البحر بعصا موسى، عليه السلام:

﴿ ***وأوحينا إلى موسى أن اسر بعبادي فاضرب لهم طريقا في البحر يبسا لا تخاف دركا ولا تخشى*** ﴾ (طه:76)

﴿ ***فاسر بعبادي ليلا إنكم متبعون*** ﴾ (الدخان:22)

ولما ضرب موسى، عليه السلام، البحر الأحمر بعصاه في المكان المقترح للعبور، انفلق البحر بمقدار ما يمر موسى والمؤمنون، فكان الممر يابسا لا ماء فيه ولا بلل، وماء البحر انتصب على الجانبين كجبلين، ولما مر موسى والمؤمنون، وحاول الفرعون وجنوده اللحاق بهم، عاد البحر كما كان:

﴿ ***وأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود [28] العظيم وأزلفنا [29] ثم الآخرين، وأنجينا موسى ومن معه أجمعين ثم أغرقنا الآخرين إن في ذلك لآية*** ﴾ (الشعراء:63-64)

ولما كان الفرعون يغرق في البحر الأحمر، قال: آمنت باللّه تعالى وبرسوله موسى، عليه الصلاة والسلام، وكان الجواب: أنه لا فائدة من إيمان المضطر، ولكن بدنك سيبقى آية للعالمين، شاهدا على مصير الكفار المتألهين في الأرض:

(***حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية وإن كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون***) (يونس:90-92)

كفر قوم عيسى بن مريم، عليه الصلاة والسلام

وبعث اللّه تعالى عيسى بن مريم، عليه الصلاة والسلام، في فلسطين، مؤيدا بالمعجزات، لينقذ بني إسرائيل مما تردوا إليه من الانحراف، والإسراف في المادية، ومن قتل الأنبياء:

(***ورسولا إلى بني إسرائيل أني جيئتكم بآية من ربكم إني أخلق لكم من الطين كهيأة الطير فأنفخ فيه فيكون طائرا بإذن اللّه وأبرئ الأكمه[30] والأبرص وأحيي الموتى بإذن اللّه وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين***) (آل عمران: 48).

بعث اللّه تعالى عيسى بن مريم، عليه الصلاة والسلام، عاملا بما سلم من الضياع والتحريف في التوراة الموسوية، ومخلصا بني إسرائيل من التشريعات العقابية التي عوقبوا بها، نتيجة لتعنتهم لأوامر اللّه تعالى ونواهيه، حيث حرم اللّه تعالى عليهم بعض الطيبات، كالطيور وشحوم الأنعام، مع أن الأصل في التحريم: أنه يصيب الخبائث دون الطيبات:

(***فبظلم من الذين هادوا[31] حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل اللّه كثيرا وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل***) (النساء:159-160)

(***وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا[32] أو ما اختلط بعظم ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون***) (الأنعام:147).

(***ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم***) (آل عمران:45)

في نفس الوقت كان عيسى بن مريم، عليه السلام، مبشرا بخاتم النبيئين محمد بن عبد اللّه، عليه الصلاة والسلام: (***ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد***) (الصف:6)

لكن بني إسرائيل انقسموا في الموقف من رسول اللّه عيسى بن مريم، عليه الصلاة والسلام، إلى طائفتين:

الأولى: كفرت برسالة عيسى، واعتبرته ساحرا:

(***فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين***) (الصف:6)

وأنه ابن الزانية، وكما يقول التلمود:

" إن يسوع الناصري موجود في لجات [33] الجحيم، بين القار [34] والنار، وإن أمه مريم أتت به من العسكري باندارا، عن طريق الخطيئة [35] وقد سجل القرآن هذه التهمة التي اتهم بها اليهود مريم العذراء، وبرأها منها، واعتبر ذلك بهتانا عظيما لا حقيقة له :

(***وبكفرهم وقولهم على مريم بهتانا عظيما***) (النساء:155)

(***ما المسيح بن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة***) (المائدة:77)

وتضم هذه الطائفة التي كفرت بعيسى، عليه السلام، اليهود الفريسيين الذين ينكرون البعث، ويرون أنفسهم من طينة غير طينة الناس، ويبيحون خيانة غير اليهودي من العرب وغيرهم، وإلى هذه الطائفة يشير القرآن:

(*ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائما ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل* [36] *ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون*) (آل عمران:74)

وإلى هذه الطائفة تعود الأباطيل المدونة في التلمود، وفي التوراة المحرفة.

وتقترب من طائفة الفريسيين طائفة الصادوقيين الذين ينكرون البعث كذلك، ويرون: أن الروح تموت كما يموت البدن، وينكرون وجود الملائكة، والشياطين، لكنهم لا يبيحون خيانة غير اليهودي وغشه، ويومنون بالعهد القديم أي التوراة دون التلمود [37].

والثانية: قلة من بني إسرائيل آمنت بعيسى رسولا، وهم الحواريون صحابة عيسى بن مريم، عليه الصلاة والسلام، وهم التلاميذ الذين اختارهم نبي الله تعالى، وبعثهم للدعوة إلى التوحيد في فنيقية والجليل (لبنان):

(***قال عيسى بن مريم للحواريين من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة***) (الصف:14)

إن كفر بني إسرائيل في عهد عيسى بن مريم، عليه الصلاة والسلام، هو كفر يعترف بالله تعالى ربا، لكن ربوبيته خاصة ببني إسرائيل، وليس ربا لكل الناس: رب العالمين، يطلقون عليه اسم (يهوه) وهي كلمة ذات أصل بابلي، بقيت لدى اليهود من الأسر البابلي، الذي استمر من 714ق.م إلى سنة 538ق.م، حيث كان لكل مدينة بابلية إلهها الخاص، أما الألوهية باعتبارها حاكمية، فهم ينكرونها، ومن ذلك امتلأت توراة الأحبار بالأكاذيب من إملاء الأحبار وتصوراتهم، بالإضافة إلى أنهم ينكرون البعث والحساب والجزاء، كما يصوره القرآن في هذه الآية:

(***لمن الملك اليوم لله الواحد القهار اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب***) (غافر:15-16)

كفر المدعوّين برسالة خاتم النبيئين محمد بن عبد الله، صلى الله عليه وسلم:

وبعث الله تعالى محمدا بن عبد الله، عليه الصلاة والسلام، في مكة، بالحجاز، أوائل القرن السابع للميلاد، وأيده بمعجزات، على رأسها المعجزة الخالدة: القرآن المجيد، الذي تحدى بلغاء العرب : أن يأتوا بسورة مثله، أو بحديث، مهما قل، من مثله:

(***وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين***) (البقرة:22-23).

(***أم يقولون تقوله بل لا يومنون فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين***) (الطور:31-32)

ولما طلب المشركون بمكة النبي، صلى الله عليه وسلم، بآية تدل على نبوته، قال لهم الله، عز وجل:: ألم تكفهم المعجزة الخالدة: القرآن، فغير القرآن معجزة مؤقتة:

(***وقالوا لولا أنزل عليه آية من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يومنون***) (العنكبوت: 50-51)

وعلى خلاف الرسالات السابقة، كانت رسالة الرسول محمد بن عبد الله، صلى الله عليه وسلم، عامة لكل البشر إلى قيام الساعة ﴿ ***وأرسلناك للناس رسولا وكفى بالله شهيدا*** ﴾ (النساء:78)

﴿ ***وما أرسناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولكن أكثر الناس لا يعلمون*** ﴾ (سبأ:28)

(وما ***أرسلناك إلا رحمة للعالمين*** ﴾ (الأنبياء:106)

يقول الرسول، عليه الصلاة والسلام:

أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي:

- نصرت بالرعب مسيرة شهر،
- وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا، وأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة، فليصل،
- وأحلت لي الغنائم،
- وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس كافة،
- وأعطيت الشفاعة [38].

وبهذا الاعتبار، فجميع البشرية مأمورة أن تؤمن بمحمد، عليه الصلاة والسلام، ومن لم يؤمن به كان كافرا، ومن أصحاب النار يوم القيامة، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم:

"والذي نفس محمد بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة، لا يهودي، ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار" [39].

فالبشرية منذ بعثة الرسول محمد، عليه الصلاة والسلام، كلها من أمته، إلا أنها تصنف صنفين، أمة الإجابة التي استجابت لدعوته، فآمنت بالله ورسوله وكتابه، وأمة الدعوة التي خوطبت بالرسالة المحمدية، وينتظر منها أن تؤمن، وتستجيب، وبالتالي لا يجوز لمؤمن أن يلتمس الهداية من الكتب السماوية السابقة على الإسلام؛ لأن القرآن هيمن على هذه الكتب، فمصدر الهداية الوحيد هو القرآن وبيانه: السنة النبوية، يقول الرسول، صلى الله عليه وسلم: "لو نزل موسى فاتبعتموه وتركتموني لضللتم، أنا حظكم من النبيئين، وأنتم حظي من الأمم" [40].

يقول الله، عز وجل: عن هيمنة القرآن على الكتب السابقة: ﴿***وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه***﴾ (المائدة:50)

ورغم المعجزة الخالدة التي أعطاها الله تعالى لرسوله، عليه الصلاة والسلام، إضافة إلى المعجزات المؤقتة الأخرى، ظل أغلب المكيين على كفرهم واستهزائهم بالنبي، عليه السلام، وبالوحي، وكان الكافرون بالنبي محمد، صلى الله عليه وسلم، بصفة أساسية، ثلاثة أصناف:

الصنف الأول: المشركون العرب الذين يعبدون الأصنام، باعتبارها آلهة، تقربهم إلى الله تعالى، في زعمهم، وتشفع لهم لديه:﴿ ***والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم يوم القيامة فيما هم فيه يختلفون إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار*** ﴾ (الزمر:3-4)

﴿ ***أم اتخذوا من دون الله شفعاء قل أو لو كانوا لا يملكون شيئا ولا يعقلون قل لله الشفاعة جميعا*** ﴾ (الزمر:40-41)

لكن هؤلاء المشركين يؤمنون بالله تعالى ربا، يخلق، وييسر الحياة على الأرض بتوفير ما تقوم به الحياة:

﴿ ***ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فأنى يؤفكون*** ﴾ (الزخرف:87)

﴿ ***ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله قل الحمد لله*** ﴾ (العنكبوت:63)

إلا أن كفر هؤلاء المشركين هو إنكارهم للألوهية الواحدة الحاكمة عن طريق التشريعات الصالحة لحياة الإنسان على الأرض. فالتشريع الصالح هو الثابت الذي يصدر عن العالم علما مطلقا بالماضي، والحاضر، والمستقبل وإلا كان التشريع عرضة للتبديل والتغيير، عند انكشاف القصور أو الخطأ بالتطبيق، أو عند ظهور الأهواء من المعنيين بالتشريع:

﴿ ***ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين*** ﴾ (الأعراف:53)

﴿ ***ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير*** ﴾ (الملك:14)

﴿ ***وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون***﴾ (البقرة:214)

إلا أن كفر هؤلاء المشركين هو إنكارهم للألوهية الواحدة الحاكمة عن طريق التشريعات الصالحة لحياة الإنسان على الأرض، فالتشريع الصالح هو الثابت الذي يصدر عن العالم علما مطلقا بالماضي، والحاضر، والمستقبل وإلا كان التشريع عرضة للتبديل والتغيير، من المعنيين بالتشريع

الصنف الثاني: اليهود: هؤلاء رفضوا الإيمان بالنبي العربي محمد بن عبد الله، عليه الصلاة والسلام، لأنهم كانوا ينتظرون النبي المبعوث من بني يعقوب (إسرائيل) بن إسحاق، عليهما الصلاة والسلام، لا من بني إسماعيل جد العرب:﴿ ***ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا*** [41] ***فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به. فلعنة الله على الكافرين بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغيا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده فباؤوا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين***﴾ (البقرة:88-89)

وهذا بالإضافة إلى أن اليهود ادعوا، أن عزيرا- وهو عزرا بن سرايا، جامع توراة الأحبار، وقائد عودة اليهود من الأسر البابلي الذي استمر بين 711، وسنة 538 قبل الميلاد -هو ابن الله، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا:﴿ ***وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يوفكون*** ﴾ (التوبة:30)

وادعاء النبوة لله تعالى شرك، وكفر صراح، كما تنص الآية السابقة.

الصنف الثالث: المسيحيون، هؤلاء رفضوا الاعتراف برسول الله، صلى الله عليه وسلم: وأشركوا بالله تعالى عن طريق الادعاء بأن عيسى بن مريم، عليه الصلاة والسلام، هو الله، أو أن الله تعالى حل فيه، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا:﴿ ***لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار*** ﴾ (المائدة:74)

كما أشرك المسيحيون بادعاء أن الله تعالى هو ثالث ثلاثة: الأب، والابن، والروح القدس:﴿ ***لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم ما المسيح بن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام*** ﴾ (المائدة:77-75)

وأيضا أشرك المسيحيون بالله تعالى عن طريق ادعاء: أن عيسى بن مريم وأمه مريم إلهان من دون الله

تعالى، وسيسأل الله، عز وجل، رسوله عيسى بن مريم، عليه الصلاة والسلام، يوم القيامة، عن أصل أو مصدر هذا الإدعاء لدى المسحيين، هل هو (عيسى) قال لهم ذلك ؟

﴿ وإذ قال الله يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن عبدوا الله ربي وربكم ﴾ (المائدة:18-19)

بإجمال: هذا هو الكفر الأصلي بأنواعه الواردة في القرآن والسنة النبوية:

- كفر التمرد على الخالق أو الاستكبار دون إنكار للربوبية والألوهية، وهذا كفر إبليس اللعين.

- كفر إنكار وجود الله تعالى وربوبيته وألوهيته، كما هو كفر قوم نوح، وقوم صالح، عليهما الصلاة والسلام.

- كفر الشرك بالله مع الاعتراف بالربوبية، وإنكار الألوهية، كما هو كفر قوم هود، عليه الصلاة والسلام، وكفر العرب المشركين الذين لم يستجيبوا لرسالة محمد، عليه الصلاة والسلام.

- كفر إنكار صفة رب العالمين، وادعاء رب خاص بجماعة معينة، كما هو كفر قوم عيسى بن مريم، عليه الصلاة والسلام، من اليهود.

- كفر ادعاء النبوة لله تعالى كما هو كفر بعض المخاطبين برسالة محمد بن عبد الله، عليه الصلاة والسلام، من اليهود والنصارى.

- كفر ادعاء التثليث وإنكار الوحدانية والتوحيد، كما هو كفر بعض فرق النصارى.

هذه أنواع الكفر الأصلي في القرآن والسنة النبوية، فما هو الكفر الطارئ أو الردة ؟ يتبع./.

الهوامش:

(1)- صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي، صلى الله عليه وسلم، عن الإيمان والإسلام والإحسان، وعلم الساعة، رقم: 50. وصحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب ما هو الإسلام، وبيان خصاله، رقم 10.

(2)- نفس المصدر.

(3)- صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان أركان الإسلام ودعائمه، رقم: 113.

(4)- صحيح الجامع الصغير وزيادته، رقم:2.792.وهو صحيح.

(5)- صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها رقم: 151 .

(6)- سنن الترمذي،كتاب الإيمان، باب ما جاء من أن المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، رقم: 2.627. وقال عنه: حسن صحيح.

(7) صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب ما قيل عن أولاد المشركين، رقم: 1385

(8) صحيح مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار، رقم: 7136

(9)- قال الرسول، صلى الله عليه وسلم: لا تقتل نفس ظلما إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها، لأنه أول من سن القتل.

(صحيح البخاري،كتاب أحاديث الأنبياء باب خلق آدم، صلوات اللّه عليه وذريته، رقم 3.335)

(10)- المستدرك على الصحيحين، أبو عبد اللّه الحاكم النيسابووي ج: 2،ص: 596، صححه الحاكم، ووافقه الذهبي، لأن مثل هذا الكلام لا يقال إلا عن توقيف.

(11)- أطلس القرآن، د.شوقي خليل، ص:19-27.

(12)- على افتراض أن ما يقوله نبي اللّه نوح، عليه السلام، صحيح، من بعث رسول.

(13)- صحيح البخاري بشرح فتح الباري ج: 7، ص 514.

(14)- حتى لا يسمعوا كلمة اللّه التي يتلوها نوح، عليه السلام، عليهم.

(15)- غطوا وجوههم ورؤوسهم بثيابهم، حتى لا يروا نوحا، عليه الصلاة والسلام.

(16)- ما الذي جعلكم لا تخافون عظمة اللّه تعالى.

(17)- مراحل التكون من نطفة، فعلقة، فمضغة، فإنسان من عظم ولحم وأعصاب.

(18)- أطلس القرآن، ص: 28-31.

(19)- باردة شديدة البرودة.

(20)- شديدة الصوت والبرودة معا.

(21)- قاطعة مستأصلة للنبات، والإنسان، والأحياء.

(22)- دون رؤوس.

(23)- كفر ربه: تعني: إنكار الوجود، وكفر ربه: تعني عدم الإيمان

(24)- الأشير (الفتحتين): شدة البطر، والبطر: دهش يعتري الإنسان من يسوء احتمال النعمة، وقلة القيام بحقها، وصرفها إلى غير وجهها.

(25)- الهشيم: التبن، والمحتضر: من له حضيرة الغنم.

(26)- صحيح البخاري، بشرح فتح الباري، رقم: 3.381، وصحيح مسلم، رقم:2.981.

(27)- تمت غلبته في المحاجة، وانقطعت حجته.

(28)- الطود: الجبل العظيم

(29)- قربناهم للحاق بالمؤمنين في البحر الأحمر.

(30)- من ولد أعمى، لا يبصر

(31)- اليهود.

(32)- الأمعاء

(33)- اللجة (بضم اللام): معظم الماء.

(34)- المكان الشديد البرودة

(35)- الزنا، وانظر: دراسات عن اليهودية والمسيحية وأديان الهند، ص: 244.

(36)- ليس علينا حرج في ديننا في أخذ أموال غير اليهود، لأنها مباحة لنا، فاللّه تعالى خلق الدنيا وما فيها لليهود، وغيرهم خدم لهم.

(37)- دراسات عن اليهود والمسيحية وأديان الهند، ص:222، والأسفار المقدسة، ص: 48 وما بعدها.

(38)- صحيح البخاري، كتاب الصلاة، باب قول النبي صلى اللّه عليه وسلم، جعلت لي الأرض مسجدا وطهورا، رقم: 521

(39)- صحيح مسلم، رقم: 153، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد، صلى اللّه عليه وسلم إلى جميع الناس، ونسخ الملل بملته.

(40)- صحيح الجامع الصغير وزيادته، رقم: 4.184، وهو حسن

(41)- المقصود: المشركون العرب، فكان اليهود يقولون للعرب، سيبعث نبي، وسنقاتلكم معه.